سيكولوجيـــة التعذيـــب خـــلال الثـــورة الجزائريـــة

http://www.arabpsynet.com/Documents/DocZaatoutPsyTorture.pdf

د. رمضـــــان زعطـــــوط
الجـزائـــــر
z.ramdan@gmail.com

إن الجنون الحقيقي هو الذي يفقد الإنسان شعوره بالحرية، وأستطيع أن أصرح هنا أنني سجلت من مظاهر هذا الفقد الجنوني شيئا جعلني لا أصدق أحيانا ما أرى" فرانز فانون من رسالة إلى روبير لاكوست 1956

رأس مجاهد شهيد وضعه الفرنسيون فوق مقدمة عربة وهو من منطقة عين البيضاء بناحية قسنطينة

الشهيد العربي بن مهيدي والبسمة تعلو محياه لحظة القبض عليه وقد تم تعذيبه حتى استشهد

1. مقـدمـــــــة

يعود صراع الإنسان مع أخيه الإنسان إلى فجر التاريخ لأسباب كثيرة ولعل قصة قابيل وهابيل كانت فاتحته الأولى. ومع أن الإنسان كائن متفرد في مقارنته بالكائنات الأخرى ولذلك استحق التكريم والرفعة من خلال إتباعه لمنهج الرسل فيما يتعلق بتنظيم علاقته مع إخوانه في البشرية، إلا أن غرائزه قد تهبط به فيصل إلى أعماق سحيقة من الدناءة لا توجد لدى الكائنات الأخرى. إن الحيوان يتصارع مع أخيه بدرجة تبلغ ذروتها لدى الحيوانات المفترسة، لكنه يفعل ذلك غالبا من أجل الطعام أو حماية الإناث والذرية، لذلك لم يعرف التعذيب في الكائنات الأخرى، أو الاستمتاع به كما يحدث لدى البشر.

يعود صراع الإنسان مع أخيه الإنسان إلى فجر التاريخ لأسباب كثيرة ولعل قصة قابيل وهابيل كانت فاتحته الأولى

إن التعذيب عمل بشري بغيض يستند إلى غريزتين هما: العدوان والجنس. وهاتان الغريزتان تقعان تحت سيطرة العقل لدى الإنسان السوي، فإذا أفلتتا من عقالهما وتنكر الإنسان لعقله وأخلاقه فإنهما تتجاوزان الخطوط الحمراء كلها...ويعود الإنسان إلى بدائيته الأولى فيقتل ويذبح ويعذب ويحتقر أخاه الإنسان.

لقد عرف التعذيب منذ 3000 سنة ومازال اسم كاليغولا إمبراطور روما الوحشي يتردد في

الأذهان حيث كان يجد متعة عظيمة في مشاهدة ضحاياه يموتون على طريقة الموت الصيني الرهيب.إن التعذيب ليس غريبا على الثقافة الغربية فهو متجذر فيها بدءا بسباق المجالدين في روما كظاهرة شعبية، وحتى ما جرى للهنود في أمريكا ومحاكم التفتيش والحروب الصليبية، وليست مشاهد سجن أبو غريب ببعيد.

لم يعرف التعذيب في الكائنات الأخرى، أو الاستمتاع به كما يحدث لدى البشر

ليس غريبا إذا أن يمارس الجيش الفرنسي التعذيب إبان ثورة التحرير فقد مارسه منذ دخوله إلى الجزائر واعتبره عملا عاديا للجنود في تعاملهم مع المسلمين الأنديجان انطلاقا من نظرة استعمارية تستبيح أجساد الناس وأعراضهم بعدما استباحت أرضهم وديارهم. تقول Raphaëlle Branche. في كتابها القيم: *La torture et l'armée pendant la guerre de l'Algérie* :

« La torture est au cœur de la guerre »

لذلك سنحاول في هذا المقال تسليط الضوء على بعض الجرائم التي قام بها الجيش الاستعماري مركزين على مرحلة الثورة، مع التذكير أننا نتناوله من زاوية العلوم النفسية والطبية وليس من زاوية التاريخ، كما سنقدم للموضوع بتحليل نفسي للجلاد، ثم بالآثار النفسية للتعذيب على الضحية.

إن التعذيب عمل بشري بغيض يستند إلى غريزتين هما: العدوان والجنس. وهاتان الغريزتان تقعان تحت سيطرة العقل لدى الإنسان السوي

2.تعريـــــف التعذيـــــب

التعذيب سلوك بشري يتراوح من بين مجرد ألم بسيط إلى الموت.ويدخل في تعريفه أربعة عناصر على الأقل:

1. تورط شخصين على الأقل: الجاني أو الجلاد والضحية.
2. التعريض للمعاناة أو الألم الشديد لأجل الاستنطاق.
3. نية تحطيم إرادة الضحية للحصول على أسرار أو اعترافات.
4. كونه نشاط منظم وموجه لتحقيق هدف معين أي أنه ليس حادثا عرضيا غير مقصود.

إن التعذيب ليس إساءة في المعاملة لأن الهدف الرئيسي منه هو الوصول إلى انهيار الضحية جسديا ونفسيا، ويعتبر التعذيب النفسي أشد وقعا على الأشخاص الذين يتمتعون بمزايا نوعية مثل الأخلاق والشجاعة والإيمان. كذلك فإن التعذيب الجسدي واضح ويمكن التعرف عليه سواء كان ضربا أو صعقا أو إعطاء أدوية أو حرمانا حسيا، أو الحروق الناتجة عن التهاب أعقاب السجائر...الخ. أما التعذيب النفسي فيعتمد على قيم الشخص ومعتقداته وكلما كان المساس بها خطيرا كلما كانت المعانات النفسية شديدة مثل الدين والجنس والعرض.

إن التعذيب ليس غريبا على الثقافة الغربية فهو متجذر فيها بدءا بسباق المجالدين في روما كظاهرة شعبية، وحتى ما جرى للهنود في أمريكا ومحاكم التفتيش والحروب الصليبية، وليست مشاهد سجن أبو غريب ببعيد

إن التعريف المقبول حاليا هو المعتمد من طرف الأمم المتحد في معاهدتها ضد التعذيب (1984) وهو: "كل عمل يتم بواسطته تعريض شخص للألم والمعاناة الحادة جسدية أو نفسية عن قصد من أجل الحصول منه أو من شخص ثالث على معلومات أو اعترافات أو من أجل معاقبته على عمل قام به أو قام به شخص آخر أو مشكوك فيه، من أجل تخويفه أو الضغط عليه أو على شخص آخر أو اعتمادا على سبب عنصري عندما يقوم بهذا العمل شخص يتبع النظام العمومي أو أي شخص يتصرف بصفة رسمية أو بتحريض منه أو بموافقة صريحة أو ضمنية "

ولا ينطبق هذا التعريف على الآلام والمعاناة الناتجة عن عقوبة مستحقة قانونيا وتابعة لها أو متسببة فيها"

و يتضح من التعريف أن الدول والمنظمات مدانة أيضا وليس الأفراد فقط..

ويثبت فعل التعذيب بأحد الأدلة مثل:

1. الاعتراف من طرف الجناة: مثل المجرم Ausseresses

2. شهادة الضحايا.
3. افتضاح آثار التعذيب خاصة الجسدية.
4. الصور والوثاق.
5. الآثار النفسية.

ويعتبر التدليل على فعل التعذيب من أصعب الأمور، ولا يمكن إقراره إلا بأدلة قاطعة، لذلك ليس من السهل على الضحايا أن يصلوا إلى منظمات العفو وحقوق الإنسان أو محكمة العدل الدولية وغيرها.

ليس غريبا إذا أن يمارس الجيش الفرنسي التعذيب إبان ثورة التحرير فقد مارسه منذ دخوله إلى الجزائر واعتبره عملا عاديا للجنود في تعاملهم مع المسلمين الأندجان انطلاقا من نظرة استعمارية تستبيح أجساد الناس وأعراضهم بعدما استباحت أرضهم وديارهم

3.خصائص الجلاد أو المعذب

قد نستغرب كبشر متحضرين نعيش في الألفية الثالثة أن يقوم إنسان عاقل أو مجموعة من البشر بتعذيب أناس مثلهم لمجرد الشبهة، أو من أجل الحصول على معلومات قد لا تكون دقيقة أو صحيحة أصلا. إلا أن التعذيب أحد مظاهر الوجه المظلم للطبيعة البشرية، حيث يتحول الإنسان العاقل المتعلم المتحضر إلى وحش لا يعرف الرحمة ولا يبالي بمعاناة الناس وآلامهم، لذلك يؤكد علماء النفس على أن الجلاد يملك خصائص نفسية تميزه عن غيره.

إن المعذبين يمثلون أحيانا قمة الهرم السياسي أو العسكري، وقد لا يقومون بالتعذيب بأنفسهم وإنما بإعطاء الأوامر والضوء الأخضر لمن هم دونهم في الرتبة والذين ينفذون الأوامر بالإكراه وغالبا ما يكونون كبش الفداء إذا افتضح أمر هذه الجرائم.

يعتبر التعذيب النفسي أشد وقعا على الأشخاص الذين يتمتعون بمزايا نوعية مثل الأخلاق والشجاعة والإيمان

وإذا تتبعنا جرائم هؤلاء الجلادين نجدهم يتميزون بمظاهر نفسية أهمها:

1.**السادية sadisme**: أي الاستمتاع بآلام الآخرين، والحصول على لذة نفسية وأحيانا جنسية من القيام بتعذيب الآخرين. يحاول الشخص السادي أن ينكل بالآخرين بكل الوسائل.

2. المطاوعة أو المسايرة:conformisme حيث يستجيب الجلاد لأوامر رؤسائه بطريقة تتسم بالخضوع والسلبية، يقول الجنرالMassu: " أن مبدأ التعذيب كان مقبولا، وهذا الفعل كان مطلوبا من طرف السلطات المدنية التي كانت على علم بذلك" (Le monde 2000)

3.الاستهانة بالمجتمع:psychopathie وهي خاصية في الشخصية المضادة للمجتمع أو السيكوباتية، حيث لا تحترم قانونا ولا أعرافا ولا قيما، وتتميز بالعدوانية كما أنها باردة عاطفيا ولا تعرف الإحساس بالندم كما أنها لا تتعلم من تجاربها السابقة ولا تؤمن بالعدل والحرية والكرامة، وكل همها تحقيق المنفعة واللذة (مهدي 2004).

أما التعذيب النفسي فيعتمد على قيم الشخص ومعتقداته وكلما كان المساس بها خطيرا كلما كانت المعاناة النفسية شديدة مثل الدين والجنس والعرض.

وقد لا يكون هذا السيكوباتي من قعر المجتمع بل رئيس دولة ويدعى في الأدبيات النفسية بالسيكوباتي المهذب وهو أخطر من المستهين العنيف.

4.البارانويا paranoïa : وتميز الشخص المتكبر، المتعالي الذي يـــرى في المجتمـــع و الناس أعداء له، ويتوقع نوايا السوء في الآخرين، لذلك يسبقهم بالعدوان لحماية نفسه.

5. التبرير rationalisation: يعتبر الجلاد و المعذبون التعذيب أمرا مقبولا فهم يقومون به بضمير مرتاح، لأنه في منطقهم الوسيلة الوحيدة لتحقيق الأمن والسلام حتى لو أدى إلى موت بعض الأشخاص، بل إننا نجد في معسكرات التعذيب الحديثة خبراء في علم النفس وعلم الأعصاب والطب، ومازالت فضائح الأخصائيين النفسيين في بعض الدول الأوروبية مثل روسيا بالتواطؤ مع الأطباء النفسيين في استعمال خبراتهم في علم النفس في تعذيب السجناء(براين إينز 2000).

يقول الكاتب الأمريكي مايكل ليفين في النيوزويك 1992 وهو أستاذ الفلسفة في جامعة

نيويورك تحت عنوان " قضية التعذيب:" لنفترض أن أحد الإرهابيين قد خبأ قنبلة في جزيرة مانهاتن وكان من المقرر أن تنفجر في ظهيرة اليوم الرابع في الساعة العاشرة صباحا ولم يصرح بمكان القنبلة مفضلا الموت على ذلك..اعتقد أنه لغرض إنقاذ أرواح الأبرياء...هناك قليل من الخطر على الديمقراطيات الغربية من أن تفسد مصداقيتها إذ اختارت تسبيب الألم للمحافظة على النظام".

لكن منظمة العقود الدولية ردت هذه الحجة بطريقة منطقية فقالت:"قد يشتبه برجل أنه زرع قنبلة وقد يكون هناك صديق لرجل آخر يشتبه انه زرع قنبلة..وسوف يكون هناك رجل خطير يعمل أفكارا شيطانية يمكن أن يزرع قنبلة...حيث يمكن للتعذيب أن يكشف خططه..."وهكذا يصبح الهاجس الأمني مبررا لتعذيب أي مشتبه به.

غير أن هناك حقيقة أخرى أثبتتها أبحاث Miligram وRansler في كل من أمريكا وألمانيا تشير إلى أن الإنسان العادي قد يتحول في ظروف معينة إلى جلاد حقيقي، وهو نفس الرأي الذي أثبته Zimbardoرئيس الجمعية الأمريكية لعلم النفس في بحوثه عن سيكولوجية الشر ومنها تجربة سجن ستانفورد الشهيرة في 1970.

إن الجلاد يتلاعب بغرائز البشر حيث تشير Hannah Arendt (1965) في كتابها a report on the banality of evil : Eichmann in Jérusalem

"إن الجاني يبرر لنفسه عملية التعذيب، فهو بدلا من قوله:" لقد نفذت أعمالا شنيعة ومخيفة ضد الناس"، يقول:" كم هي رهيبة الأشياء التي شاهدتها أثناء قيامي بواجباتي وكم كان حمل المهمة التي ألقيت على عاتقي ثقيلا".

بل أن الجلاد كما تذكر Elaine Scarry في كتابها The body in the painيبعد نفسه عن ضحيته نفسيا من خلال إنكار بشريته، وحتى في اللغة المستعملة يصبح فعل التعذيب شيئا جميلا، أو ساخرا فيسمى "بالرقص" أو "حفلة الشاي" أو "عيد الميلاد" أو "الهاتف"، أو "سهرة أم كلثوم" أو "رحلة في الطائرة".

5.الآثار النفسية للتعذيب

تتوقف آثار التعذيب على عوامل أهمها:

1. نوعية التعذيب وشدته.
2. شخصية الجلاد.
3. شخصية الضحية خاصة ما إذا كان يتوقع التعذيب أم لا.
4. وجود الدعم الاجتماعي بعد تخلصه من التعذيب وكذا وسائل وطرق إعادة تأهيله.

يشكل التعذيب بالنسبة للضحية صدمة كبيرة، وتعتبر الصدمة في جانبها النفسي رد فعل من الكائن الحي الذي يتعرض لكرب مادي أو نفسي. وهي متنوعة من حيث السبب أو النوعية وكذا الظرف المحيط بها، غير أن الباحثين يرون أن التعذيب يمثل نوعا خاصا من الصدمات لأنه هجوم مبيت مقصود هدفه تحطيم إرادة الفرد وهويته وشخصيته(Jaffe 2001).

ذلك القصد الاختياري مهم جدا في تقويمنا لآثار التعذيب على الفرد من وجهة نظر هذا الأخير بغض النظر عن خبرة الجلاد وتمكنه من استغلال العوامل النفسية والجسدية والاجتماعية للوصول بالضحية إلى حالة الاستسلام والعجز والامتثال القسري.

إن ضحية التعذيب إنسان له قدرة على مقاومة الضغوط والكروب والمحن، لكن التعذيب

يثبت فعل التعذيب بأحد الأدلة مثل:

1. الاعتراف من طرف الجناة: مثل المجرم Ausseresses
2. شهادة الضحايا.
3. اقتضاع آثار التعذيب خاصة الجسدية.
4. الصور والوثائق.
5. الآثار النفسية

أن التعذيب أحد مظاهر الوجه المظلم للطبيعة البشرية، حيث يتحول الإنسان العاقل المتعلم المتحضر إلى وحش لا يعرف الرحمة ولا يبالي بمعاناة الناس وآلامهم

يؤكد علماء النفس على أن الجلاد يملك خصائص نفسية تميزه عن غيره.

مازالت فضائع الأخصائيين النفسيين في بعض الدول الأوروبية مثل روسيا بالتواطؤ مع الأطباء النفسيين في استعمال خبراتهم في علم النفس في تعذيب السجناء

الشديد يوصل الفرد إلى حالة الانهيار نتيجة عوامل مساعدة لا تتواجد غالبا في الصدمات والرضوض الأخرى وأهم هذه العوامل هي:

1. عدم فهم مجرى الأحداث.
2. العزلة والحرمان الحسي والاجتماعي.
3. العلاقة الجديدة مع الجلاد.
4. العجز والشعور بفقدان التحكم في الأحداث وعدم القدرة على التوقع أو التنبؤ بما سيحدث في المستقبل القريب والبعيد.

إن الجاني يبرر لنفسه عملية التعذيب، فهو بدلا من قوله:" لقد نفذت أعمالا شنيعة ومخيفة ضد الناس"، يقول:" كم هي رهيبة الأشياء التي شاهدتها أثناء قيامي بواجباتي وكم كان حمل المهمة التي ألقيت على عاتقي ثقيلا

1- عـــــدم الفهـــــــم

يعيش الضحية في حالة من الرعب الشديد بسبب عدم قدرته على فهم ما يجري، لأن التعذيب سلوك غير مبرر ولا عقلاني، لم ير الضحية له مثيل من قبل، مما يشل قدرة الفرد على تمثله واستدخاله في تجربة الحياة. ذلك أن للمصائب والحوادث التي يتعرض لها الفرد منطقا يمكن فهمه مثل: موت عزيز، أو ابتلاء في المال والولد والصحة...الخ. أما التعذيب فهو شيء مختلف يشل مقاومة الفرد، ويحطم قيمة الأصيلة المرجعية سواء الخاصة به أو بجماعته أو بأمته وحضارته وثقافته.

تتوقف آثار التعذيب على عوامل أهمها:

1. نوعية التعذيب وشدته.
2. شخصية الجلاد.
3. شخصية الضحية خاصة ما إذا كان يتوقع التعذيب أم لا.

إن الصدمات التي يتعرض لها الفرد في تجربة التعذيب تقتلع الفرد من الواقع اليومي إلى عوالم أخرى هذيانية يستغلها الجناة لتهديم الشعور بالتماسك الذي يقينا من تفكك الشخصية (Jaffe 2001) تصاب قيم الفرد ومبادئه بتشوه كبير قد يتعذر إصلاحه بعد ذلك، لذلك يحاول الفرد استدخال الصدمة في منظومته المعرفية بطريقة سلبية مصحوبة بتأنيب الذات. هذه الذات التي تتحطم شيئا فشيئا، فتتشوه صورة العالم والمحيط، وفي هذه المرحلة يتدخل الجلاد ليفرض نظرته.

إن توقع الضحية للتعذيب كما حدث إبان الثورة الجزائرية يجعل للتعذيب دلالة، ويمكن الضحية من تحدي جلاديه. وهو ما حدث لمئات المجاهدين الشهداء من أمثال زبانا، وبومنجل، وبن مهيدي وآخرون.

أما لدى الأشخاص الذين يجدون أنفسهم في جحيمه دون سبب مثل حالات الاشتباه، والاعتقالات الجماعية، فإنهم يصابون بكارثة نفسية لأن التشوش وعدم الفهم يزداد.إن الوصول لحالة التشوش وعدم الفهم هي التي يسعى إليها الجناة عندما يغيرون الأماكن والوجوه والأوقات، وكذا الظروف الفيزيقية مثل الضوء والحرارة وكذا تعصيب العيون...حينها يستحيل على الضحية تحديد أي مؤشر عن المكان والزمان والأشخاص مما يزيد في معاناته وآلامه.

يشكل التعذيب بالنسبة للضحية صدمة كبيرة

2.العزل والحرمان الحسي والاجتماعي:

يعتبر التعلق أحد العناصر البشرية الكامنة وراء قدرنا على التكامل الاجتماعي، وإنشاء روابط تمكننا من التفاعل مع الآخرين، والإحساس بالأمن والدفء في وجود الآخرين من بني جنسنا ذلك أن الإنسان حيوان اجتماعي بفطرته، ويؤدي السجن الانفرادي والتعذيب إلى انهيار إرادة الفرد وإحساسه بالعجز المكتسب كما بينه Seligman في تجاربه على الكلاب وأتضح في الأعراض التي أصيب بها المعتقلون الذي تعرضوا للتعذيب في الحرب العالمية الثانية بالخصوص.

أن الباحثين يرون أن التعذيب يمثل نوعا خاصا من الصدمات لأنه هجوم مبيت مقصود هدفه تحطيم إرادة الفرد وهويته وشخصيته

ومن أجل تعميق الحرمان الحسي والاجتماعي يعمد الجلادون إلى تجريد الضحية من حوائجه الشخصية، ثم من ملابسه لأن بقاءه عاريا ينزع عنه الشعور بالأمان الذي تعطيه لنا ملابسنا...كما أنه يزيد من العذاب النفسي لاستباحة الفضاء الجسدي للفرد...بل ويسهل عملية التعذيب الجنسي والاغتصاب كما شاهدنا في فضائح أبو غريب مع الجنود الأمريكيين، وهو نفس الأسلوب

الذي تم استعماله من طرف الجنود الفرنسيين وهناك صور مقرفة يندى لها جبين العسكرية خاصة في تعذيب النساء مثل ما حدث للسيدة إيغيل احريز وقريش وغيرهن كثيرات (Le Monde 2000).

التعذيب الشديد يوصل الفرد إلى حالة الانهيار نتيجة عوامل مساعدة لا تتواجد غالبا في الصدمات والرضوض الأخرى

3.العلاقـــــة مـــع الجـــــلاد

إن طول مدة التعذيب والسجن تحول مكان التعذيب إلى مسرح عبثي لا يجد الضحية أمامه إلا الجلاد، وإذا كان الحرمان الحسي شديدا فقد تنشأ علاقة بين الجاني والضحية أشبه بعلاقة الغالب بالمغلوب الشخصية (Jaffe 2001)، وقد يتوحد الضحية مع الجلاد ويتحول إلى جلاد هو أيضا، وكم عذب جزائريون إخوانهم وتاريخ الحركة ملئ بالدناءات التي لا توصف والتي يمكن مراجعتها في كتاب: Ratonnade à paris لـــ Paulette Peugeot، وعلى هامشه كتاب" Les Harkis à Paris"

يعيش الضحية في حالة من الرعب الشديد بسبب عدم قدرته على فهم ما يجري

ويرى البعض أن العنف الصهيوني في معاملة الفلسطينيين هو أحد وجوه التوحد مع المعتدي أو الجلاد" Identification à l'agresseur"

4.أهم الأعراض النفسية والجسدية

أ. إضطراب الكرب التالي للصدمة PTSD:

الذي قد يظهر متأخرا بعد إفلات الضحية من الموت، ويتمثل في استعادته للذكريات الأليمة بطريقة عنيفة وكأنه شريط سينمائي مرعب خاصة في الأحلام أو في حالة ما إذا رأى أو سمع شيئا يذكره بتجربته الأليمة، إضافة إلى اضطراب الذاكرة والحساسية الشديدة.

التعذيب سلوك غير مبرر ولا عقلاني، لم ير الضحية له مثيل من قبل، مما يشل قدرة الفرد على تمثله واستدخاله في تجربة الحياة

ب.الإضطرابات النفسية الجسدية:

مثل ارتفاع ضغط الدم، أو اضطراب نظم القلب، وكذا اضطراب الجهاز الهضمي والتنفسي، إضافة إلى أعراض أخرى مثل الصداع والأرق والقهر أو إباء الطعام.

ج.ظهور أعراض الإكتئاب والحزن وفقدان الأمل، والأفكار السلبية عن الحاضر والمستقبل، والتشاؤم الشديد، واضطراب النوم، وربما وصلت الحالة إلى الهلاوس والذهان الشديد (مهدي 2004).

أما التعذيب فهو شيء مختلف يشل مقاومة الفرد، ويحطم قيمة الأصيلة المرجعية سواء الخاصة به أو بجماعته أو بأمته وحضارته وثقافته

د.الاتجاه للعدوان والعنف: و كذا الرغبة في الانتقام خاصة إذا جاءت الفرصة السانحة للتعبير عن الحقد الذي يحمله الضحية للجاني. و قد يتحول عنف الضحية إلى أشخاص آخرين لا علاقة لهم بتجربة التعذيب التي تعرض لها كنوع من تعميم الانتقام.

5. وسائل التعذيب:

لقد تنوعت أساليب وفنون التعذيب حسب الفترة التاريخية، وثقافات وحضارات الشعوب وكذا التقدم التقني واكتشاف الأدوات و المواد المؤذية للبشر سواء من الناحية الجسدية أو النفسية. بل أن بعض الجلادين أبدع في ابتكار أساليب التعذيب وتنويعها للوصول إلى قمة المعاناة.

إن الصدمات التي يتعرض لها الفرد في تجربة التعذيب تقتلع الفرد من الواقع اليومي إلى عوالم أخرى هذيانية يستغلها الجناة لتهديم الشعور بالتماسك الذي يقينا من تفكك الشخصية

لقد استعمل الضرب والحرق أو الكي بالنار في أجزاء مختلفة من الجسم وكذا غمس الرأس في الماء، أو باستعمال الحرارة والبرودة في الماء أو المعادن، وكذا وضع الرأس في كيس أو منع الشخص من النوم، أو خنقه بوسائل متعددة من الأسلاك المعدنية إلى قطعة الشاش المبلل(مهدي 2004)، أو تعليقه من رجليه ويديه أو قلع أظافره وفروة رأسه. أو الاعتداء الجنسي على الضحية أو على زوجته أو ابنته في حضوره، إلى الصعق بالكهرباء أو إطلاق الحيوانات المتوحشة عليه، أما أساليب التعذيب النفسية فهي كثيرة منها على سبيل المثال :

1-الخوف: ترهيب الضحية بكل الوسائل المتاحة ومنها أن تعرض عليه وسائل التعذيب أو يرى أمامه عملية تعذيب لأحد رفاقه. ومن أمثلة التخويف الإعدام المزيف. حيث ترتب عملية إعدام

مشابهة لما يقع فعلا، مثل ما وقع للكاتب الروسي الشهير دوستويفسكي، سنة 1849.

2-الإرباك النفسي : وهو الذي وصفناه سابق عندما تحدثنا عن التشوش والحرمان النفسيين.

3-استعمال المخدرات وغسيل الدماغ:

ويذكر محمد مهدي، أن العوامل المشتركة في وسائل التعذيب هي :

1. **تحقيق اكبر قدر من الألم** لدى الضحية بالتأثير على جهازه العصبي مثلما يحدث في الضرب والكي والصعق، ويحرص الجلادون على أن يكون الألم في حدوده القصوى بزيادة تصاعدية حتى ينهار الضحية أو يموت.
2. **غياب السقف الزمني:** ويتم بإيهام الضحية أن التعذيب مستمر ولن يتوقف قريبا.
3. **غياب سقف الوسائل:** وذلك بمفاجأة الضحية في كل مرة بوسيلة جديدة للتعذيب لم تخطر على باله.
4. **استباحة الجسد:** حيث لا توجد منطقة في الجسد ممنوعة.
5. **الاستباحة النفسية:** فليست هناك أي خطوط حمراء لا يمكن تجاوزها فالغاية تبرر الوسيلة.
6. **التعذيب إبان الثورة :**

إن لائحة الأسماء التالية للجلادين الفرنسيين تعتبر ممثلة لآلاف المجرمين الذين استباحوا أرض وعرض الجزائريين:

- Paul Ausseresses
- Colonel SEHAKEN
- Général MASS
- Général SCHMITT
- Général DURAL
- Raoul Salan
- Maurice PAPON
- Général BUGEOUD
- Colonel PILLISIER
- Duc Rovigo

إن التصريحات التي أدلى بها الجنرال ماسو وأوسارس وغيرهم في اعترافاتهم بجرائمهم في الثورة الجزائرية ليست غريبة لأن أغلبهم تجرع هزيمة الجنرال جياب في الأندوشين وتدرب على التعذيب والانتقام فأصبح خصلة فيه.

إن الفيلسوف الفرنسي Francis Jeanson يتعجب كما يقول سعدي بزيان في كتابه "جرائم فرنسا في الجزائر"، من الذين يتساءلون عما جرى في الجزائر من طرف جنرالات فرنسا وهل هي جرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية ؟ فيجيب : "أنا لا أفهم لماذا نطرح اليوم سؤالا عن التعذيب بدون أن نتساءل عن الحرب الاستعمارية. والسؤال الذي ينبغي طرحه بحق هو: لماذا قمنا نحن بالحرب ضد الشعب الجزائري وباسم أية مصلحة ولفائدة من ؟ لقد قمنا بسياسة استعمارية لا ترحم منذ حوادث 8 مايو 1945. فالتعذيب لم يولد مع ثورة نوفمبر 1954 بل وجد قبل هذا التاريخ".

لكننا سوف نستعرض بعض أوجه التعذيب لنفهم نفسية والجاني والضحية معا، وأنه إلى جانب الذين استشهدوا هناك ملايين من ضحايا التعذيب خاصة من النساء.

- يرىRobert Bonnaud، انه في حرب الجزائر كان هناك ما نسميه "بثقافة التعذيب" داخل الجيش الفرنسي في سنوات الخمسينات (Le monde 3.4 dec. 2004). وللتذكير فإن هذا الكاتب ممن استدعوا إلى العسكرية سنة 1956، وكتب بعد ذلك La Paix des Nementchas سنة 1957، الذي يقول فيه : " إن السؤال الرئيسي الذي كنا نطرحه ليس هو :

من تعرض للتعذيب من الأنديجان بل هو :من لم يتعرض للتعذيب منهم؟".

يؤدي السجن الانفرادي والتعذيب إلى انهيار إرادة الفرد وإحساسه بالعجز المكتسب

من أجل تعميق الحرمان الحسي والاجتماعي يعمد الجلادون إلى تجريد الضحية من حوائجه الشخصية، ثم من ملابسه لأن بقاءه عاريا ينزع عنه الشعور بالأمان الذي تعطيه لنا ملابسنا

إذا كان الحرمان الحسي شديدا فقد تنشأ علاقة بين الجاني والضحية أشبه بعلاقة الغالب بالمغلوب الشخصية

قد يتوحد الضحية مع الجلاد ويتحول إلى جلاد هو أيضا، وكم عذب جزائريون إخوانهم وتاريخ الحركة ملئ بالدناءات التي لا توصف

يرى البعض أن العنف

الصهيوني في معاملة الفلسطينيين هو أحد وجوه التوحد مع المعتدي أو الجلاد

– يشير Claire Mauss Copeaux: في رسالته للدكتوراه التي ناقشها سنة 1995، إن نصوص القوانين والمنشورات التي سمحت بالتعذيب كثيرة منها التعليمة رقم 11 المؤرخة في 1 جويلية 1955 أي قبل شهر ونصف من انتفاضة أوت 1955 والموقعة من طرف وزير الداخلية آنذاك Bourgés Maunoury والجنرال Koenig تقول بالحرف الواحد :

« La lutte doit être plus policière que militaire (…..) le feu doit être ouvert sur tout suspect qui tente de s'enfuir (…..) les moyens les plus brutaux doivent être employé sans délai (…..) il faut rechercher le succès par tous les moyens ».

يتمثل (إضطراب الكرب التالي للصدمة) في استعادته للذكريات الأليمة بطريقة عنيفة وكأنه شريط سينمائي مرعب خاصة في الأحلام أو في حالة ما إذا رأى أو سمع شيئا يذكره بتجربته الأليمة

مع العلم أن تلك التعليمات صدرت بأوامر أعلى الهيئات أو على الأقل بعلمها من الجنرال ديغول إلى فرانسوا ميتران إلى كل الوزراء ورؤساء الحكومات المتعاقبة دون استثناء.

لقد كان ضباط الاستعلامات (OR : Officies de Renseignements) الأداة لهذه الأعمال القذرة : التي يفتخر بها أوسارس وماسو... وغيرهم.

– لقد قامت الباحثة الفرنسية Raphaelle Brauche في رسالتها للدكتوراه L'armée et la tortue pendant la guerre de l'Algérie بتحليل الخطابات، والكراسات العملياتية للفيالق والفرق العسكرية الفرنسية من 1954 إلى 1962، وحاولت أن تصل إلى جذور التعذيب وأسبابه حيث ترى أن هزيمة الجيش الفرنسي في ديان بيانفو أصبحت تشكل عقدة لديه هدفها الانتقام والقضاء على كل مقاوم أو مجاهد.إن الهيئات المشرفة آنذاك على ما يسمى بالاستجوابات العميقة " Interrogatoires poussés" ولدت في الهند الصينية.

وتؤكد هذه الباحثة أن التعذيب كان تلقائيا وشمل جميع مناطق الجزائر دون استثناء، وإن كانت بعض المراكز الخاصة بالتعذيب اشتهرت أكثر من غيرها مثل ضيعة Améziane في الشمال القسنطيني والتي مر عليها ما لا يقل عن 108175 جزائريا تم تعذيبهم....

السؤال الذي ينبغي طرحه بحق هو: لماذا قمنا نحن بالحرب ضد الشعب الجزائري وباسم أية مصلحة ولفائدة من ؟(الفيلسوف الفرنسي Francis (Jeanson

إنني تعمدت هذه الشهادات عن التعذيب وجذوره من طرف فرنسيين، لا يمكن إتهامهم بالتحيز لصالح الثورة الجزائرية، وإن كان مما يدمي القلب أن المحنة التي مر بها ضحايا التعذيب والوحشية لم تجد من يوثقها سواء ممن عايشوها وأكتووا بنارها، أم من جيل المثقفين والباحثين.

يقول Paul Teitgen الذي استقال من مهمته و كان أمينا عاما لولاية الجزائر والذي قدم استقالته في 12 سبتمبر 1957 احتجاجا على ما شاهده من تعذيب وتقتيل "أنه من بين 24000 معتقلا، اختفى 3024 دون أي أثر يذكر".إن الجنرال أوسارس يعترف أنه قتل 24 مجاهدا بنفسه وبيديه، مما يجعل منه مجرم حرب دون منازع.

انه في حرب الجزائر كان هناك ما نسميه "بثقافة التعذيب" داخل الجيش الفرنسي في سنوات الخمسينات (Robert (Bonnaud

لقد استعمل الجيش الفرنسي كل وسائل التعذيب المعروفة قبله، يقول العقيد روجيه ترنكوبير: " في حالة عدم مواجهة أي صعوبة في استخراج المعلومات يتم الاستجواب بسرعة ، ولكن في حال عدم حصول ذلك يجب على الاختصاصيين استعمال كل الوسائل المتوفرة لاستخراج أية أسرار يخفيها ذلك المشتبه به".

ويمكننا أن نتصور تلك الوسائل حيث استعمل الجيش الفرنسي كل ما ذكرناه سابق عن الوسائل الوحشية للتعذيب، وأضاف إليهم اختصاصان فرنسيان هما:

1.التعذيب بالكهرباء: "La gégène»، والكلمة مأخوذة من كلمة المولد الكهربائي Générateur حيث كانت تربط أعضاء الضحية خاصة في المناطق الحساسة، وتسري الكهرباء فيها فيصعق حتى الموت أحيانا، وكان هذا النوع مؤلما جدا للنساء خاصة.

2. تقنية الدرجة الثالثة: حيث كان يتم مهاجمة السجين جسديا أو نفسيا عن طريق إجلاسه في غرفة مظلمة مزودة بمصباح كهربائي قوي اللمعان يوضع على طاولة ويشع مباشرة في وجهه، وتنهال عليه الأسئلة دون أن يرى أشخاص المحققين معه مع إدراكه لوجودهم.

كما استعمل التعذيب بالماء على نطاق واسع سواء بالغمس أو بالابتلاع حتى تصبح البطن مثل الكرة الكبيرة، وكذا تعليق الضحية من يديه بمسامير، أو من قدميه وتدليه إلى الأسفل وغطسه في الماء حتى الموت، لقد كانت هناك أوضاع جسدية يترك فيها المجاهد خاصة النساء بطريقة مخزية.

لقد كان الاغتصاب شيئا عاديا ومسموحا به في كل الحالات، وليست شهادة السيدة إيغيل أحريز أو غيرها إلا قمة الجليد العائم (Le monde oct 2001).

– ورغم كل الفضائح التي ارتكبها الجيش الفرنسي ومعاونيه من الحركة والأقدام السوداء ، فلقد كان هناك شرفاء قالوا لا لهذه الأعمال الوحشية، من أمثال الجنرال De La Boudriére الذي توفي سنة 1986، والذي قدم استقالته يوم 17 مارس 1957 ولحق به Paul Teitgen بعد يومين فقط.

لقد كان الهدف الرئيسي لهذا السلوك الوحشي هو كسر شوكة المقاومة الجزائرية والقضاء على الثورات المتتالية خصوصا ملحمة نوفمبر الخالدة. غير أن مراجعة بسيطة للنتائج التي كان يحصل عليها الجلادون والتي كانوا يصفونها بالهزيلة «maigre»، وكذا استشهاد مئات الآلاف تحت التعذيب، ترينا أية طينة صنع منها الجزائري، وكيف حصنت الثورة المجاهدين من الناحية النفسية ببناء مفاهيم مثل :

1. العزة والكرامة أو "النيف"
2. الإيمان والاستشهاد والجهاد
3. حرية الأرض وصيانة العرض
4. الأخوة وتحريم الغدر والخيانة

ولقد لعبت بعض السلوكات البسيطة مثل عدم التساهل مع استعمال التدخين، والكحول، والمخدرات، والجنس دورا هاما في تحصين المجاهد حين الوقوع في الأسر كي لا يعترف بسهولة بل إن تقنية الاعتراف المرحلي وتتمثل في الطلب من المجاهد أنه إذا وقع في الأسر يجب أن يقاوم لمدة حتى يتمكن رفاقه من اتخاذ التدابير الوقائية، بعدها يمكنه أن يعترف في حدود ما يستطيع ويتحمل.

تلك إشارات فقط لجانب مهمل من تاريخ ثورتنا، نتمنى أن ينتبه إليه الدارسون، والمجاهدون الأحياء من اجل إحياء ذاكرة ثورة تردد صداها في أركان الكرة الأرضية ومازالت دليلا للباحثين عن الحرية.

الخلاصـــــــة

إن التعذيب هو أحد الأوجه المظلمة للطبيعة البشرية، والتي اجتمعت الأديان والأعراف والقوانين على تجريمه ومنعه.

لقد طبق الاستعمار الفرنسي أكثر الوسائل وحشية لمقاومة الثورة الجزائرية، وتحمل جزء كبير من الجزائريين هذه الوحشية منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر ولا تقل تلك التضحية في رأي عن الشهادة التي ظفر بها الشهداء...ورحم الله الجميع.

تؤكد هذه الباحثة Raphaelle Brauche) أن التعذيب كان تلقائيا وشمل جميع مناطق الجزائر دون استثناء

إن كان مما يدمي القلب أن المحنة التي مر بها ضحايا التعذيب والوحشية لم تجد من يوثقها سواء ممن عايشوها وأكتووا بنارها، أم من جيل المثقفين والباحثين

لقد كان الاغتصاب شيئا عاديا ومسموحا به في كل الحالات، وليست شهادة السيدة إيغيل أحريز أو غيرها إلا قمة الجليد العائم

لقد كان هناك شرفاء قالوا لا لهذه الأعمال الوحشية، من أمثال الجنرال De La Boudriére الذي توفي سنة 1986

لقد لعبت بعض السلوكات البسيطة مثل عدم التساهل مع استعمال التدخين، والكحول، والمخدرات، والجنس دورا هاما في تحصين المجاهد حين الوقوع في الأسر كي لا يعترف بسهولة

عجوز من منطقة سور الغزلان جاءت تشكو الجنود الفرنسيين الذين قاموا باغتصاب ابنتها بطريقة وحشية سنة 1961

المراجـــع:

1. سعدي بزيان : جرائم فرنسا في الجزائر ، دار هومة (2002).
2. سعدي بزيان : جرائم موريس بابون ضد المهاجرين الجزائريين دار ثالة 2003.
3. براين اينز : تاريخ التعذيب، الدار العربية للعلوم 2000.
4. شاوش حباسي : من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر 1830 – 1962، دار هومة 1998.
5. SAKINA Messaadi : Nos sœurs Musulmanes : Editions Houma, Algérie 2001.
6. Philip. D. Jaffe : Nature de la torture. Polycopie. Oct. 2001.
7. CNFPH : violence et société. Numéro spécial. Recherche scientifique 28 Fev. 2001.
8. CSVR: The psychology of torture. Seminar N° 3, 1989 by Shirley Spitz.
9. Le Monde du 21 juin 2000.
10. L'Humanité du 31 Octobre 2000.
11. Le Monde 3-4.7 Décembre 2000.
12. Le Monde 28 nov. 2000.
13. Raphaëlle Branche : la torture et l'armé pendant la guerre d'Algérie. Ed. Gallimard 2001.
14. l'Express en ligne 30 Nov. 2000 à www.lexress.fr.

*** *** ***